

مقدمة

هذا الكتاب محاولة لفهم الشيعة والسنة وما بينهما من اتفاق واختلاف، لأنى أعتقد أن جهل كل فرقة بحقيقة الأخرى كان من أهم أسباب الجفوة والتباعد، وقدما قيل (الناس أعداء ما جهلوا).

ليس هدفى من هذا الكتاب الدعوة إلى تحويل الشيعة إلى سنة، أو تحويل أهل السنة إلى شيعة، أو توحيد الفرقتين فى فرقة واحدة، فهذه مسألة عملت فيها عوامل السياسة والمصالح والتاريخ عملها، وتعمقت مع الزمن، ولم يعد أمامنا سوى التعامل مع الحقيقة وهى أن أهل السنة والشيعة جميعا مسلمون، يتفقون فى أصول الدين، ويؤمنون بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد ﷺ نبيا ورسولا، ولا يختلفون على شىء من أركان الإسلام الخمسة، والاختلافات الفقهية بين الفريقين لاتخرج عن الفروع مما يجوز فيه الاختلاف.

والاختلافات الأساسية بين السنة والشيعة تنحصر فى أمرين أساسيين:

الاختلاف الأول: قول الشيعة إن الإمامة ركن من أركان الإسلام وضرورة ملازمة له، وإن الإمامة فى كل العصور وإلى نهاية العالم لابد أن تكون فى أبناء الإمام على بن أبى طالب والسيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنهم. وإن منزلة الإمام كمنزلة الأنبياء، فهذه النظرية تتعارض مع عقيدة أهل السنة الذين يرون أن حكم المسلمين ليس فرضا مفروضا فى سلالة بعينها، وأن منزلة الرسول محمد ﷺ لايمائله فيها غيره، وأن حب آل البيت يملاً قلوب جميع المسلمين سنة. وشيعة، وهذا لايعنى أن يقصروا

الولاية والحكم عليهم أبد الدهر وإلى يوم الدين.. والعصر الحاضر مختلف عن عصر الاختلاف على الحكم في صدر الإسلام أو في عصر الدولة الأموية أو العباسية.. نحن الآن في عصر حرية الشعوب في اختيار حكامها.. عصر الديمقراطية، وعن طريق صندوق الانتخابات وحده يتم اختيار الحاكم وله سلطة سياسية وليس له سلطة دينية. ولقد كان الإمام مالك عظيما عندما قال: هم رجال، ونحن رجال، وكلهم يُرَدُّ عليه إلا صاحب القبر هذا، وأشار إلى قبر الرسول ﷺ، فليس لأحد من البشر عصمة بعد الرسول ﷺ، ولآل البيت الحب والمنزلة الرفيعة، وهم في النهاية بشر، يسرى عليهم ما يسرى على البشر.

الاختلاف الثاني: هو زواج المتعة، وإن كان لدى الشيعة أسانيد يرددونها تفيد بأن الرسول ﷺ أباحه ولم يمنعه، فإن لدى أهل السنة أسانيد قوية تؤكد تحريم هذا الزواج، وتجعل شرط صحة الزواج أن يكون بنية التأبّد، أي عقد النية على استمراره مدى الحياة ما لم يجد سبباً للانفصال. فالشيعة يقولون بسرّان أحكام الإيجار على زواج المتعة وأهل السنة لا يقبلون ذلك ويربّثون بالمرأة أن تخضع لأحكام الإيجار وبرابطة الزواج أن تكون لقضاء حاجة.

وفيما عدا ذلك فإن الأفكار الشاذة والغريبة التي تنسب إلى الشيعة والموجودة في الكتب القديمة مثل كتاب «الملل والنحل» للشهرستاني، والتي يرددها البعض حتى اليوم، ليست للشيعة الإمامية والزيدية ولكنها أفكار فرق ضالة كانت موجودة في زمن مضى، ولم يعد لها وجود في هذا العصر. أما فرق الشيعة التي نتحدث عنها فهم أتباع مذهب الإمامية الجعفرية الاثنى عشرية، ومذهب الزيدية، والاختلاف بينهما وبين أهل السنة ليس جوهريا سواء في العقيدة أو الفقه، وسواء في العبادات أو المعاملات. مع ملاحظة أن الشيعة الزيدية لا يشترطون الإمامة من أهل البيت ولا يقرون زواج المتعة.

ليس هدفي الدعوة إلى الغاء المذاهب، أو توحيد المذاهب، ولكن هدفي أن يسود الفهم والتفاهم، والقبول بالاختلاف بين أهل المذاهب الإسلامية، مادام الاتفاق بينها على أصول الدين كاملا.

ومن قراءة التاريخ نكتشف أن الشيعة في الأساس لم تنشأ مذهبا دينيا له فقه مستقل، ولكن النشأة كانت لأسباب سياسية. والاختلاف كان حول من الأحق بالحكم بعد وفاة الرسول ﷺ، الإمام عليّ وبعده الإمام الحسين ثم أهل البيت، أو الخلفاء أبو بكر وعمر وعثمان، مع ملاحظة أن الإمام علياً أعطى البيعة للثلاثة وكان لهم ناصحا ومعينا. وهذا يتكرر في التاريخ كثيرا، أن يكون الأتباع أكثر تعصبا من صاحب القضية نفسه. ومع ذلك فإن الأمر كله انتهى مع الزمن، فلم يعد الإمام عليّ كرم الله وجهه موجودا لكي نرد إليه حقه في الخلافة حتى وإن كان النبي ﷺ قد نص علي حقه فيها. ولم يعد أمامنا إلا أن نترك الأمر لله يحكم فيما كانوا فيه يختلفون. كذلك فإن أهل السنة اليوم ليسوا أتباع أبي بكر وعمر وعثمان أو معاوية ولم يبايعوا أحدا منهم. نحن أمام شعوب مختلفة، ولم تعد قضايا القرون الماضية هي قضايا اليوم، ولا ينبغي أن يقف التاريخ الإسلامي عند واقعة واحدة لا يتجاوزها. هذا ما يدعو إلى حوار بين أهل السنة والشيعة ليس بقصد التوحيد، ولكن بقصد التفاهم والتعايش، لأن الجميع يستظلون بعظلة واحدة هي الإسلام، ويكفي الإسلام ما يتعرض له من حملات التشويه والعدوان مما يفرض على عقلاء الأمة السعي إلى التقارب على الأقل، إن لم يكن التوحد ممكنا.

ولقد حاولت أن أعرض بحياد وموضوعية نظرية الشيعة، بقدر ما أتيت لي من مراجع، ولا أدعي أن عملي هذا بلغ الكمال، وربما أعود في طبعة قادمة إلى مراجعة ما كتبت بالإضافة أو التعديل في ضوء ما قد يتاح لي من مصادر ومراجع جديدة، وفي ضوء لقاءاتي وحواراتي المستمرة مع الأصدقاء في كل المذاهب.

وسيلاحظ القارئ بعض التكرار في مواضع رأيت أن التكرار فيها ضروري حتى لا يختل سياق الموضوع ولا أضطر إلى إحالة القارئ إلى صفحات سابقة، وأرجو أن يكون التكرار في الحدود اللازمة وألا يضيق به القارئ.

وقد يلاحظ القارئ أيضاً أن هناك اختلافات داخل مذهب الشيعة الإمامية أيضاً، وأرى أن ذلك دليل على أن الفكر داخل هذا المذهب ليس فكراً واحداً، وأن فيه اجتهادات مختلفة وتعددية، وفيه أيضاً مراجعته من بعض علمائه تتضمن تراجعاً عن بعض الأفكار التقليدية القديمة، وهذا ما يمكن اعتباره تجديداً في المذهب الشيعي يقربه أكثر من مذاهب أهل السنة.

كما سيلاحظ القارئ أنني دعوت إلى حوار بين أهل السنة والشيعة، لأننا في عصر الحوار، وهناك حوار بين الأديان يجري في أنحاء مختلفة من العالم، فكيف لا يكون هناك حوار بين أبناء الدين الواحد، ومع افتراض أن بعض الاختلافات لا يمكن تجاوزها أو القضاء عليها فهذا أيضاً لا يمنع الحوار. والاختلافات بين أتباع الدين الواحد ليست مقصورة على المسلمين وحدهم، ونحن نشهد الخلافات بين الكاثوليك والبروتستانت والارثوذكس وهم جميعاً أتباع دين واحد، وبينهم حوار ويضمهم كيان واحد هو مجلس الكنائس العالمي ومجلس كنائس الشرق الأوسط. الحوار وليس الجفاء، هذه هي الرسالة التي أردت أن تصل إلى المسلمين من خلال هذا الكتاب.

وأدعو الله تعالى أن يساعدنا على تصفية القلوب والضمائر، والعمل بما يرضاه وليس بما يرضينا، والسعي إلى التقريب وليس التباعد، تنفيذاً لأمره تعالى:

﴿وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ سورة المؤمنون الآية ٢٥.

وبالله التوفيق..

عبد الباق